إدوارد سعيد

أثرُه في العالم... وفينا

المعرفة السياسية والمعرفة المحضة

□ أسعد أبو خليل

العرب وسعيد

لم تتسنَّ للعالم العربيّ بعدُ معرفةُ كتابات إدوارد سعيد معرفةً حقّةً. ولا يعود ذلك فقط إلى أنّ الصحافة العربية لم تُعنَ بنشر كتابات سياسيةٍ له بصورة دورية، ولا بسبب انكبابنا على الكتابات السياسية المباشرة أكثرَ من انكبابنا على النتاج الفكريّ النظريّ فحسب، بل أيضًا لأنّ كتاب **الاستشراق** وكتابات إدوارد سعيد في مجال النقد الأدبيّ ماتزال بعيدةً عن متناول القراء العرب. صحيح أنّ كتاب **الاستشراق** صَدَرَ في ترجمة عربية لكمال أبو ديب، إلاّ أنّ الترجمة لم تكن ناجحة أبدًا، إذ إنّ أبو ديب ارتأى أن يترجِم على هواه، مجترحًا عباراتٍ ومصطلحاتٍ خاصةً به حتى وإنْ اختلفتْ في معناها عن المعنى الوارد في النصّ الإنكليزيّ الأصليّ.

المعرفة السياسية والمعرفة المحضة

يتعامل سعيد في كتابه هذا مع ظاهرة نصوص الاستشراق الغربيّ معتمدًا منهجًا مبتكرًا ورائدًا. صحيح أنّ نقد الاستشراق بدأ قبل ظهور كتاب سعيد بسنوات بل بعقود، إلاّ أنّ هذه الكتابات كانت ذاتَ طابع طائفيّ أو شوفينيّ (أيْ تَرْفض دراسةَ غير العربيّ للعرب أو غيرِ المسلم للمسلمين)، أو كانت كتاباتٍ متفرّقةً لم تؤسِّس لعلم نقد الاستشراق كما فَعَل سعيد. لكنْ يجب التنويهُ بكتابات صدرتْ لعبد اللطيف طيباوي وأنور عبد الملك، بالإضافة إلى كتاب نجيب العقيقي المليء بالأخطاء. وبعض هذه الدراسات اتّسمت بالتعميم والتبسيط.

إدوارد سعيد أَدْخَلَ فصلاً منهجيًا في التعاطي مع المعرفة الأكاديمية. فهو استطاع، لأول مرّة، أن يخلخل ثقةً مفرطةً بالنفس حَكَمَتْ مسارَ الاستشراق الغربيّ الكلاسيكيّ.[1] فالاستشراق احتاج كي يصبح مقبولاً، وكي ينفي عن نفسه تهمةَ الغاية السياسية، إلى أن يقدّم نفسه للعالم كمدرسةٍ علميةٍ مستقلّة. لكنّ إدوارد سعيد أماط اللثام عن الغايات والنوايا السياسية والدينية[2] التي رافقتْ مسيرةَ الاستشراق الغربيّ. فقد قدَّمَ تبيانًا للفارق بين المعرفة المحضة (أي المعرفة غير المرتبطة بالحكومات والإيديولوجيات، مثل معرفة الشعر النبطيّ) وبين المعرفة السياسية (كالاستشراق على سبيل المثال).

وإذا دَرَسْنا الاستشراق كنتاج لمعرفة سياسية، استطعنا ربطَ نوايا الاستشراق الكلاسيكيّ وغاياته بنوايا استعمارية وإمبراطورية ودينية. فالمعرفة الاستشراقية هي معرفةٌ سياسيةٌ بامتياز، لأنّها تغطّي بقعةً في العالم كانت ولاتزال محطّ أنظار الاستعمار والإمبراطوريات الغربية المتعاقبة. ونابوليون، الذي أَظْهر اهتمامًا بالإسلام عند بدء توجُّهه نحو مصر، اصطحب معه في بواخره الحربية صفوةً من مستشرقي فرنسا آنذاك، فساعدوه على التخاطب مع الشعب المستعمَر. والإمبراطور الأميركيّ اليوم يستعين بمجموعة (لكنّها ليست نخبةً حتمًا!) من «خبراء» الشرق الأوسط، وإنْ كانت مواصفاتُهم إيديولوجيةً أكثر منها تقنيةً.

ثم إنّ المعرفة السياسية تَخْضع، بصورة مباشرة وغير مباشرة، لإرادة الإمبراطورية المهيمنة اليوم، بل وتؤثِّر في كتاباتِ مَنْ يناوئها أيضًا. ذلك أنّ التمويل أو الدعم المؤسّسيّ للدراسات المتعلّقة بالشرق الأوسط يأتي إما من الحكومة الأميركية مباشرةً (خصوصًا لطلبة الدكتوراه والماجستير) أو من مؤسسات ذات مصادر تمويل وافرة (كمؤسسة فورد فاونديشن، والمعهد الأميركيّ للسلام USIP) وذاتُ توجُّهات محافِظة؛ وهذا ما يؤثّر في ما يُكتب وما يُدرَّس. فمواضيع البحث التي تتلقّى تمويلاً جزلاً هي المواضيع التي تعود بالمنفعة السياسية والعسكرية والاستخباراتية والاقتصادية على الولايات المتحدة ... وإنْ لم يصل الاستشراقُ الأميركيّ، أو حقلُ دراسات «الإسلام والشرق الأوسط والإرهاب» (وكلُّه قد جُمع في سلّة واحدة)، إلى مرحلة الاستشراق الإسرائيليّ الذي ليس إلاّ فرعًا من فروع الجهاز العسكرتاريّ ـ المخابراتيّ للدولة الصهيونية.

---

١ ـ كلمة «كلاسيكيّ» تفي بالغرض هنا لنفي التعميم عن كلّ نتاجات المستشرقين والمستشرقات، ولاسيّما أنّ مِنْ أبلغ كُتُب نقد الاستشراق كتاباتِ المستشرق الفذّ ماكسيم رودنسون.

٢ ـ الجانب الدينيّ هامٌّ جدًا، خصوصًا إذا تذكّرنا أنّ معظم المستشرقين الأوائل، بمن فيهم مونتغمري وات ولوي ماسينيون، كانوا من القساوسة.

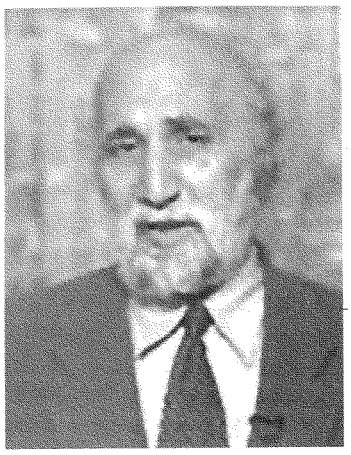

يمكن أن يزداد عدد مقلّدي ومقلّدات فؤاد عجمي بعد وفاة إدوارد سعيد

وكتاب سعيد، بعكس ما يقوله أعداؤه في نقدهم الكثير الابتذال (بالعربية واللغات الأخرى)، لم يُعمِّم ولم يَحْكُم بالإدانة على كلّ إنتاج الاستشراق الغربيّ. بل كان واضحًا في انتقائه لنماذجَ ممثِّلة للمصالح الاستعمارية والدغمائية الاستشراقية، مقابل إشارته إلى الجوانب المشرقة والمفيدة في أعمال بعض المستشرقين. وكان محقًّا في اختياره للنماذج المستشرقة، مع أنّه اتُّهم بأنّه اختار النماذج السهلة لأنّه رَكَّزَ على البريطانيين والفرنسيين لا غيرهم. لكنْ حتى النماذج الاستشراقية الألمانية والهولندية تَحْمل في طيّاتها نوايا وغاياتٍ سياسية غيرَ مبهمة؛ وعَمِلَ عددٌ من المستشرقين الألمان تحديدًا في خدمة الاستعمار الألمانيّ.

هذا لا يشين كلَّ المستشرقين مثل رودنسون أو هدجسون أو آن ماري شِمِلْ (التي تعرّضتْ حتى آخر أيامها لحملات شرسة). غير أنّ التعامل مع النصّ الاستشراقيّ اقتضى، بعد كتاب **الاستشراق**، وعيًا إنْ لم يكن ربطًا بالإطار السياسيّ للنصّ ولدور المستشرق والمستشرقة. والغريب أنّ صفحات الصحف العربية، المملوءة هذه الأيام بأفكار المحافظين العرب الجدد، تظنّ أنّ الاستشراق، كفكر وكمنهج، قد مات. لكنْ يمكن القولُ إنّ انتعاش «صناعة الإرهاب» (أي النتاج المتعلّق بدراسة الإرهاب، وفق التعريف الأميركيّ والصهيونيّ طبعًا) قد أَنْعش بدوره الاستشراقَ الكلاسيكيّ. فهل من المصادفة مثلاً أن يعود برنارد لويس، بدفع رسميّ من الحكومة الأميركية، مِنْ تقاعده ليُدليَ بدَلْوه في موضوع العرب والإسلام، وليلعب دورًا سياسيًا محضًا مع أنّ منهجه تعرَّض للنقد من قبل الجمعيات الأكاديمية المتعلّقة بدراسة الشرق الأوسط؟ وهل من المصادفة أن تَكْشف مجلةُ **فانيتي فير**، الذائعةُ الصيت والواسعةُ الانتشار، أنّ برنارد لويس هو الذي لَعِبَ الدورَ الأساسيَّ في تعريف أحمد الشلبي في أوائل التسعينيات بالفريق اليمينيّ المحافظ، المعروفِ اليوم بالمحافظين الجُدُد؟ وللنظر كيف تستعين إدارةُ الاحتلال اليوم في العراق بـ «خبراء» في شؤون الشرق الأوسط والإسلام، وإنْ لم يكونوا يتمتعون بكفاءات وشهادات على غرار المستشرقين القدامى، خذْ كنعان مكية مثلاً: فهذا الإنسان دَرَس الهندسة المعمارية ولم يَدْرس الشرقَ الأوسط ولا الإسلام (وكتاباتُه تُظْهر ذلك بوضوح!) ولا يَحْمل أيَّ شهادة دكتوراه؛ ومع ذلك فهو يحتلّ كرسيّ الدراسات الإسلامية في جامعة براندیس الصهيونية! على الأقلّ كان الاستشراق الكلاسيكيّ يَعْتمد على تدريب وتمحيص دقيقيْن جدًا، وكان على المستشرق أن يُلمّ بلغاتٍ ما كان يسمّى بـ «الشرق الأدنى،» وأن يكون على معرفةٍ بالنصوص والمخططات القديمة. وأما المستشرق اليوم فيحتفظ بالإرث الإيديولوجيّ للاستشراق الكلاسيكيّ فقط، ولكنّه لا يتمتع بالمواهب والدراسة المعمَّقة للمستشرقين الأوائل.

ازدادت المعرفة السياسية سياسةً بعد تقويم ١١ أيلول الأميركيّ، إذ تَسْعى الإمبراطورية الأميركية إلى تسخير كلّ مَنْ ادّعى معرفةً بالشرق الأوسط أو الإسلام مادام متبنيًا للمنطلقات الإيديولوجية للإمبراطورية الأميركية، بحيث لم يعد ممكنًا أن نَدْرس الشرقَ الأوسط والإسلامَ بمنأًى عن غايات الإمبراطورية الأميركية وتوجُّهاتها... مع أو ضد، لا فرق. أيْ أنّ الولايات المتحدة فَرضتْ نفسَها منهجيًا، كما فَرضتْ هاجسَها المتعلّق بـ «الإرهاب،» على دراسات الشرق الأوسط والإسلام. فهل يمكن الكتابةُ عن الإسلام بعد اليوم من دون مقدمة طويلة يضطرّ فيها المؤلِّفُ (أو المؤلّفة) إلى توضيح موقفه (أو موقفها) من بن لادن والولايات المتحدة؟ وماذا تَفعل اليوم إذا ما ارتأيتَ أنّ بن لادن يجب ألاّ يندرج منهجيًا في إطار دراسة الإسلام، وإنّما في إطار السياسة الخارجية **الأميركية** التي استَعْملت الإسلامَ أثناء الحرب الباردة لمقارعة اليسار والقومية؟

يمكن القول إنّ دراسة الشرق الأوسط والإسلام تواجه اليوم تحديًا مزدوجًا: ففي العالم العربيّ هناك ضغوطٌ جمة تحاول أن تَفْرض على المعرفة الإسلامية والشرق الأوسطية أن تلتزم الدفاع العاطفيّ المطْلق عن الإسلام، وتَمْنع فرضَ معاييرٍ نقديةٍ على دراسة النص الإسلاميّ. والحال أنّ دراسة الإسلام في العالم العربيّ، بالرغم من وجود مفكّرين ومفكّرات أفذاذ، تعاني من الكتابات الاعتذارية والعاطفية التي تركّز على الدفاع عن الإسلام وعلى نقد «أباطيل خصومه» (كما يقول عنوانُ كتاب لعبّاس محمود العقّاد). ولكنْ من المضرّ أن تؤدّي الحملاتُ الغربية على الإسلام أو على القومية العربية إلى ردّ فعل عاطفيّ يَمْنع الدراسةَ العربيةَ النقديةَ لهما. على العكس، فإنّ تعريض ما هو عزيزٌ على قلوب الجماهير لمعايير النقد العقليّ كفيلٌ بتعزيز دراسة هذه المواضيع، وكفيلٌ أيضًا بإحداث بديل ذي مصداقية للاستشراق الغربيّ. هذا لا يعني طبعًا أنّ منهج الليبرالية العربية (وهي صنو للمحافظة العربية الجديدة) بديلٌ أخلاقيٌّ ذو مصداقية. فالحقّ أنّ

الليبرالية العربية (في صفحات **الحياة** و**الشرق الأوسط** و«إيلاف» على الانترنت)، خصوصًا في كتابات العفيف الأخضر، تتبنّى بالكامل والمطلق منطقَ الاستشراق الغربيّ ومن دون معرفة عميقة بحقيقة الغرب نفسه. فالغرب في عقل الليبرالية العربية هو غربُ العقلانية وڤولتير وجان جاك روسو والعلم المحض، لا غربُ العنصرية والنازية والتفاوت الطبقيّ والأصولية المسيحية. إنّ الليبرالية العربية تَحْكم على الغرب من خلال ادّعاءاته لا من خلال واقعه. ويُمْكن توجيهُ نقد مماثل إلى طبيعة القيّمين على الدراسات الإسلامية في العالم العربيّ: فهؤلاء يَحْكمون على الإسلام وتاريخه من خلال النظرية والادّعاءات، لا من خلال الواقع المعيش.

المعرفة السياسية بعد سعيد

لا شكّ أنّ غياب سعيد بالغُ الأثر، لا لأنّ نتاجه الفكريّ يمكن أن يُدْرَجَ في حيّز خاصّ به يَسْمح لبعض مكتبات أوكسفورد ولندن مثلاً بأن تكرّس قسمًا خاصًا بالكتب تحت عنوان «سعيد،» بل لأنّ جرأتَه وحدّةَ قلمه وتسميتَه الأشياءَ بأسمائها رَدَعت الكثيرين من مقلّدي فؤاد عجمي في الغرب الأميركيّ. ويمكن أن يزداد عددُ مقلّدي ومقلّدات فؤاد عجمي في الولايات المتحدة بعد وفاة سعيد.

إنّ العلوم السياسية في الولايات المتحدة أقربُ إلى السلطة من غيرها من فروع العلوم الاجتماعية، لأنّ معرفتها أكثرُ سياسيةً ومعاصرةً من غيرها. وستستمرّ العلومُ السياسيةُ المتعلّقة بالشرق الأوسط تحديدًا على مسارها بعد أحداث أيلول من حيث تعبيرُها عن مصالح الإمبراطورية الأميركية. فالحال أنّ العلوم السياسية اليوم تأثّرتْ أقلَّ من غيرها من الفروع الأكاديمية بـ «دراسات ما بعد الكولونيالية» و«دراسات الأطراف»: فهي مازالت مركزيةَ السلطة في منهجها، تَعتبر الحكومةَ ـ خصوصًا إذا كان مَرْضيًا عنها من قبل الحكومة الأميركية ـ محوريةً، وتَعْتبر التهديدَ ضدّ الحكومة ـ خصوصًا إذا جاء من قِبل قوى يسارية أو قومية مناوئة للولايات المتحدة ـ مصدرَ خطر.

لكنّ من الضروريّ الجزم بأنّ سعيدًا لم يَطْرح بديلاً قوميًا شوفينيًا، وهو ما يَظْهر في عنوان مذكّراته الصادرة بترجمة عربية (**خارج المكان**). وفي آخر صفحة من كتابه **الثقافة والإمبريالية** كلام بليغ برسم مَنْ رأوا في كتابات سعيد وصفةً قوميةً مبتذلةً. فهو يذكّرنا بأنّنا لسنا شيئًا واحدًا فقط: نحن لسنا عربًا فقط، أو مسلمين فقط، أو أفارقة فقط، بل خليطٌ ومزيجٌ متنوّعٌ نعيش في دوائر محورية من الهويات المنسجمة والمتعارضة في آن. والكلام عن الهوية المحضة لا يتوافق مع الدراسات الجينية اليوم. كما أنّ التاريخ العربيّ والإسلاميّ زاخر بالحروب وحركات السكّان والحروب، وما يجرّه ذلك من اختلاط الدم والبشر... وإنْ كان هذا الكلامُ يَخْدش مشاعر فينيقيّي لبنان أو عفلقيّي العالم العربيّ. ومع ذلك فإنّ هذا لا يعني أنّ على العرب وحدهم أن يُمنعوا من الهوية ومن الدين أو حتى من الأصولية، في الوقت الذي تزدهر فيه الأصوليةُ والهوياتُ الشوفينية والدينُ في الغرب وفي إسرائيل.

هناك عبرة بليغة لاتزال ماثلةً بعد مرور أكثر من عقديْن على ظهور **الاستشراق**. فقد عبّر سعيد عن استيائه، في هامش وحيد في القسم الأخير من الكتاب، من عدم وجود مركز واحد يعنى بدراسة الولايات المتحدة أو الغرب في طول العالم العربيّ وعرضه. ولايزال هذا الواقع ماثلاً اليوم أيضًا، بالرغم من هطول بضعة ملايين من أموال الوليد بن طلال على الجامعة الأميركية في القاهرة والجامعة الأميركية في بيروت لإنشاء مراكز تدرّس الولايات المتحدة. وهنا نعود إلى موضوع التمويل والمعرفة السياسية. ذلك أنّ مصادر التمويل تزيد من التوجُّه السياسيّ للدراسات: فهل يمكن مثلاً الحصولُ على تمويل من أيّ من المركزيْن المذكوريْن إذا أراد المرءُ دراسةَ موضوعٍ سحبِ الأرصدة العربية من البنوك الأميركية؟!

لكنْ يجب أن يصبح موضوعُ دراسة الغرب، خصوصًا بسبب الهوس بالولايات المتحدة في عالمنا العربيّ (بالمعنى الإيجابيّ والسلبيّ)، منهجيًا وأكاديميًا وعلميًا، لا غوغائيًا أو استشراقيًا مُعاكسًا.

كاليفورنيا

أسعد أبو خليل

كاتب من لبنان. بروفسور العلوم السياسية في جامعة ولاية كاليفورنيا ـ ستانسلاس، وزميلٌ أبحاث في مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. صَدَرَ له حديثًا: **الحرب الأميركية الجديدة ضدّ «الإرهاب»** (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٣).